

القرآن مصدر انطلاق

للمستاذ محمد سلام مذكوري

رئيس قسم الشريعة الإسلامية
بكلية الحقوق - جامعة القاهرة

وقد دل الواقع التاريخي الطبيعي ايضا على ان الامم التي دخلت في الاسلام من الفرس والروم والهنود وغيرهم اقبلوا اقبالا عجيبا على دراسة اللغة العربية واوغلوا في تصنيف الكتب وتنويع العلوم التي تخدم القرآن والسنة النبوية ، وكان لذلك اثره العظيم في خدمة تفسير القرآن الكريم ودراسة السنة النبوية .

فسيبويه واضع النحو في اوائل العصر العباسي، وعبد القاهر الجرجاني امام البلاغة الاول والسكاكي امامها الثاني في عرف البلاغيين ثم ابن جرير الطبري امام المفسرين بالانار والزمخشري امام المفسرين بالصناعة العربية الذي قيل فيه وفي السكاكي : لولا الاعرجان لضاعت بلاغة القرآن ، وكثرة كاترة من امثال هؤلاء لم يكونوا من عناصر عربية ، وانما كانوا من عناصر اعجمية دخلت في الاسلام فشمردت عن ساعد الجد لدراسة اللغة العربية في مفرداتها وفي اساليبها وفي معارفها وفي آدابها مما سلط الاضواء المنيرة على الاسلام حتى دخل الناس فيه افواجا واما ، وحتى غزت لفته كثيرا من الامم حتى يستطيعوا التعمق في تفهم احكام الدين وثقافته المختلفة .

وفي الانمة المجتهدين الامام الاعظم ابو حنيفة النعمان الذي اخذ عنه بالمباشرة او الوساطة كثير من الانمة ، لولا تعلمه لغة العرب لما استطاع ان يصل الى ما وصل اليه في مراتب الاجتهاد . فهذا الخضم الجم

نعم ان هناك ارتباطا بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة العربية ، ولكي نتصور هذا الحكم بوضوح فان علينا ان نغرض ان اللغة العربية ظلمت قاصرة على التخاطب او الخطابة او الكتابة او النظم في الجزيرة العربية وحدها ، مع اعتبار ان رسالة النبي محمد صلوات الله عليه رسالة عامة كافة مصداقا لقول الله سبحانه : « وما ارسلناك الا كافة للناس » فهل كان يمكن ان اولئك المكلفين بما ارسل به محمد في غير الجزيرة العربية يفهمون ذلك الدين الجديد حتى يقوموا بتكاليفه وينهضوا باعبائه ، ولهذا فان الواقع الطبيعي المستمد من منهج محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه انهم بدأوا ينفذون رسالة الاسلام بلغة العرب ، وكان المرسل اليهم من الامم الاخرى يضطرون الى ترجمة ما يبعث اليهم من النبي او اصحابه كما تدل على ذلك كتب النبي صلى الله عليه وسلم الى ملوك ورؤساء الامم المحيطة بهم . وهذا يدعو الى ان تتعلم الامم المختلفة لغة الاسلام وهي اللغة العربية حتى تستطيع ان تتجه الى هذا الدين الجديد وتسير على وفق مناهجه .

واذا كانت هناك ترجمات من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية وقعت في عصور الخلفاء العباسيين فمن بعدهم فانما كان يدعو الى ذلك القصد الى تزويد الامة العربية بثقافات يستطيعون ان يتعايشوا بها مع الامم الاخرى التي دخلت في الاسلام .

ونستطيع ان نقول تبعا لذلك ان قوة اللغة العربية معنى ذو اثر صالح في تقوية الوازع الديني لان **التعمق في دراسة اللغة العربية يستتبع لا محالة التعمق في فهم روح التشريع الاسلامي الذي جاء بها** القرآن الكريم والسنة النبوية - ولهذا يحتاج طلاب الدين الاسلامي دائما الى دراسة اللغة العربية ويجملون ذلك وسيلة من وسائل السير في تعرف معاني القرآن الكريم والسنة النبوية على هدى وبيئة فيكونون ابعد من غيرهم من العثار في فهمها . حتى ان العلوم التي تخدم القرآن والفقه وتعتبر بمثابة موازين للفروع الفقهية كعلم اصول الفقه تجعل من موادها وأركانها ما يسمونه باللغويات التي ترشد من اراد التوسع في فهم الاصول الى الوقوف على بحث ما بهم في اللغة العربية ، كما انه من المتفق عليه انه يشترط في الشخص ليتحقق فيه وصف الاجتهاد ان يكون على علم باللغة العربية . وعلى عكس ذلك نجد ضعف الكلمة العربية كثيرا ما يكون سبيلا الى التخبط والزلل وعدم الامن من العثار لمن اراد الاستقلال بالبحث ، ولم يكتف بأن يكون تابعا لغيره وأخذا عنه ، مما يدل على اثر اللغة العربية في تفهم الدين ومدى الحاجة اليها لذلك . كما يدل على **اثر الدين الاسلامي في انتشار اللغة واتساع افقها، وهذا** القدر كاف في ايضاح ما هنالك من تلازم بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة .

اما تأثير الفكر الاسلامي عن طريق لغة القرآن في اللهجات فان ذلك يظهر مما دل عليه البحث التاريخي في لهجات العرب من انها كانت منتشرة ومختلفة اختلافا بينا ، فلما جاء القرآن الكريم بلغة قريش وآثر لهجاتها على لهجات غيرها من القبائل كان حرص المسلمين على لغة القرآن مما يزهدهم في مختلف اللهجات عدا لهجة قريش التي جاء بها القرآن ، وان كان القرآن لا يخلو من بعض اللهجات الاخرى تيسيرا على تلك القبائل التي يصعب عليها ان تنطق بلهجة قريش ، كما يتبين ذلك في بعض القراءات التي تختلف بين المد والقصر والتسهيل والهمز والاطالة وغيرها مما يتبين في موضعه من كتب القراءات، وهذا لا ينفي ان الاصل في القراءة هو القراءة بلهجة قريش وان وجود غيرها في القرآن من باب الترخيص الذي من شأنه ان يكون عند وجود العذر .

وقد نص ابو عبيدة معمر بن المثنى على ان قراءة القرآن كانت أولا بلهجة قريش ، فلما انتشر الاسلام

من المؤلفات العربية ، الذي كان مادة للمسلمين وغير المسلمين كالمستشرقين وعلماء أوروبا الذين اقتبسوا كثيرا من العلوم والمعارف والمدنيات والحضارات من معارف الاسلام ، فلم يكن ليتسنى لهم ذلك **لولا تعلمهم اللغة العربية** واعتبارها اساسا لفهم ثقافات الاسلام التي لها اكبر الاثر في تصحيح الحقائق وتهذيب النفوس واصلاح السلوك ووضع نظم العدالة .

وبهذا يظهر اننا نناصر الرأي القائل بوجود سببية بين الاسلام واللغة العربية فان دين الاسلام هو الذي تسبب في انتشار اللغة العربية على الوجه الذي اشرنا اليه وجعلها مصدر اشعاع روحي وعقلي وخلقي باعتبار انها هي التي تصور مبادئ ذلك الدين وما يدعو اليه من السمو في مختلف النواحي .

و**حقا لولا الاسلام لما تاتي لغة العربية ان تنتشر في العالم** هذا الانتشار لانها كانت لغة قوم جاهلين محصورين في جزيرتهم مشتملين على انفسهم غير ظاهرين على غيرهم تضعف قوتهم اختلافاتهم وتفككهم وخروج بعضهم على بعض ، وتسلط القوي منهم على الضعيف مما ادى الى ايقاعهم تحت سيطرة امتين ، هما : الفرس والروم ، فلما جاء الاسلام انتشلهم من وهديتهم وجمع كلمتهم ووحد صفوفهم حتى كانوا هم الغالبين ، وصارت لغتهم في فترة وجيزة تغطي منطقة فسيحة من البلاد من غرب أوروبا الى شرق آسيا وشمال افريقيا وغير ذلك .

واذا اردنا ان نستدل على صحة هذا الرأي بواقع البيئة الاقليمية وماضيها ، فاننا نجد مصر قبل الاسلام ، كانت تلهج بلغات مختلفة ، هي اللغة القبطية ولغة الدول المستعمرة . فلما دخلها الاسلام بنوره اتجهت الانظار اليه وتطلع العلماء الى الرغبة في التزود منه ، وكان هذا سبيلا الى تعلم اللغة العربية ، ثم تجلت محاسنها في معارفها وفي آدابها حتى غزت هذه اللغة ما عداها من اللغات ، وصارت لغة التخاطب والكتابة والشعر والعلم بمختلف فروعه .

وقد اعان لغة العرب على تحقيق ذلك الظفر والظهور انهالفة حية فتية تتميز بشبابها في كل عصر وتتسع لكل ما يجد من صور الحضارة ومظاهرها ومختلف الثقافات والمعارف ، وهذا المعنى يزداد وضوحا كلما اتجه المجتمع الانساني نحو التقدم والرفي ، فان اللغة العربية تجد نفسها غير عاجزة عن مسايرة كل جديد ، والتعبير عن اغراضه ومراميها .

تتأثر به بلاد المغرب من اللغة البربرية الاصلية التي تراحم اللغة العربية ، ولعل اثارهم قراءة ورش يرجع الى قرب لهجتها من لهجاتهم ، ولهذا فاننا لا نستطيع ان نأخذ عليهم كثيرا من المآخذ في ترتيل القرآن الكريم .

وبعد هذا كله تجلى الاجابة على السؤال الاخير ، وهو ان اللغة العربية يجب ان تحتل في بلادها فضلا عن غيرها من البلاد العربية والاسلامية الكاتبة الرفيعة والا تؤثر عليها لغات اخرى للمحافظة على الدين من ناحية والاستمسك باصوله وفروعه ولانها هي اللغة التي يمكن ان تقرب وجهات النظر وتيسر التخاطب بين المسلمين ، حتى تجتمع صفوفهم وتتحد كلمتهم .

هذا فضلا عما اشرنا اليه من انها لغة حية قوية وما نشير اليه الان من انها لغة علم وادب وفن وحقائق وعواطف وكل ذلك لا تستغنى عنه امة حية تنشد النهوض وتسمى اليه .

ودخلت فيه قبائل عربية مختلفة امر رسول الله ان يقريء كل قوم بلهجتهم تيسيرا عليهم ، ولهذا فاننا نذهب مع المحققين من العلماء الى ان غير العرب ممن تستعصى عليهم حروف بعض الكلمات التي ليست في لهجاتهم فان الدين يرخص لهم ان ينطقوها بما تستمع له قدرتهم ، ولا يكلفهم اكثر من ذلك كسي لا يشق عليهم ، وهذا يدخل كما اشرنا في الرخصة التي تقتضى التيسير على الناس ورفع الحرج عنهم .

والملاحظ ان المصريين اكثر الناس قريبا الى لهجة قريش واخذوا بطريقتهم في الترتيل ، وقد يكون للازهر ومكاتب تحفيظ القرآن الكريم التي يشرف عليها من اخذوا بكثير من تعاليمه في اللغة العربية مباشرة او بواسطة من ينشئون من ابنائه في مختلف نواحي القطر المصري ، واذا كنا نرى في بعض اللهجات غير المصرية ، كما في المغرب ، بل في الحجاز نفسه ، شيئا من البعد عن لهجة قريش ، واللهجات العربية الاصلية ، فان ذلك يرجع الى ما طرأ على الالسنه من تغير بمعاشرة مختلف الامم في بلاد الحجاز ، والى ما

